العرب
الخميس 2021/05/06
السنة 43 العدد 12052

مياه الصرف الصحي تهدّد أهوار العراق التاريخية

«جنة عدن» مستنقع يختنق فيه الناس والسمك والجواميس

لا تهتم السلطات في العراق بشأن الناس ومحيطهم الذي يعيشون فيه. فسوء إدارة مياه الصرف الصحي التي تتدفق مباشرة من الأنابيب في أهوار الجبايش، وهي من أهم المسطحات المائية في جنوب العراق، تهدد حياة الناس والتنوع البيئي الذي تمتاز به المنطقة.

أهوار الجبايش (العراق) - تتعرّض الأهوار التي عُرفت تاريخيا بموطن جنة عدن وتنتمي اليوم إلى التراث العالمي إلى التهديد أكثر من أي وقت مضى بسبب سوء إدارة مياه الصرف الصحي فضلا عن تغيّر المناخ.

فمياه المجاري الثقيلة تتدفق من أنابيب الصرف الصحي مباشرة في أهوار الجبايش وهي من أهم المسطحات المائية في جنوب العراق، مهددة بتلويث البيئة الحياتية للموقع.

وفي بلد تفتقر فيه الدولة إلى القدرة على توفير الخدمات الأساسية، تلقى 70 في المئة من نفايات العراق الصناعية مباشرة في الأنهار أو في البحر، وفقا لبيانات جمعتها الأمم المتحدة وأكاديميون.

ويقول جاسم الأسدي مدير منظمة طبيعة العراق غير الحكومية التي تُعنى بحماية الأهوار "تصب محطة مجاري المياه الملوثة الثقيلة الضارة بالبيئة في الأهوار دون أي معالجة لها، وهذا يؤثر بشكل مباشر على تنوع الأحياء النباتية والحيوانية فيها".

ويضيف الأسدي الذي غادر عمله في وزارة الموارد المائية ليتفرغ للعمل التطوعي لحماية البيئة، "تؤثر مياه المجاري بصورة غير مباشرة على صحة الإنسان من خلال ما يستهلكه من منتجات حيوانية تعتمد صناعتها على الأبقار والجواميس الطافية فوق مياه الأهوار"، ولاسيما قشطة القيمر وهي طبق عراقي بامتياز.

ويعيش سكان الأهوار في عمق المناطق الرطبة، ويعملون في تربية الجاموس في أماكن معزولة لا يمكن الوصول إلى معظمها إلا عن طريق القوارب. وفي 2018، تسبب صيف شديد الحرارة أعقبه قلة الأمطار في حدوث جفاف خطير. وانخفض منسوب المياه في بعض المناطق لأكثر من ثلاثة أقدام.

ونتيجة لذلك فقد مربيو الجاموس حوالي ثلث ماشيتهم، واضطر الكثيرون إلى المغادرة عندما تحولت المناطق إلى صحراء، مهاجرين إلى الضواحي الفقيرة والمدن المجاورة.

ويقول نادر محسن وهو مربي جاموس وصيّاد أسماك يعيش في الجبايش في محافظة ذي قار، إن "أغلب الجاموس لا يستطيع اليوم أن يشرب من الأماكن القريبة من أنابيب الصرف ويضطر إلى اجتياز عدة كيلومترات داخل الأهوار ليجد مياها غير ملوثة".

ويضيف محسن وهو يشير إلى السمك النافق الطافي على سطح المياه، "مياه الصرف الصحي تسببت في نفوق الكثير من الأسماك وباتت تهدد كل الحيوانات التي تعيش على مياه الأهوار".

وليس التلوث سوى واحد من التهديدات التي تعرضت لها المسطحات المائية مترامية الأطراف التي تعد أوسع دلتا داخلية في العالم.

فهذا الموئل الثري الممتد بين دجلة والفرات حيث ينمو قصب السكر وتعيش أنواع كثيرة من الطيور والأسماك بالكاد نجا من التدمير في عهد صدام حسين الذي أمر بتجفيف الأهوار في 1991 بعد أن صارت ملاذا لمعارضيه.

وأدى التجفيف إلى تقليص الأهوار إلى نصف مساحتها التي كانت تقدر بنحو 15 ألف كيلومتر مربعة في 1991.

وقبل بضع سنوات، ظن محسن وغيره من سكان الأهوار أنهم سيرون جنة عدن تزدهر من جديد. ويقدر عدد سكان هذه المسطحات المائية بعدة آلاف من العائلات المنتشرة في المنطقة الممتدة بين محافظات ميسان وذي قار والبصرة ويغلب عليها الطابع الريفي والعشائري.

فالمياه عادت بعد عام 2003 إلى تلك المناطق بعد إزالة السدود الترابية التي بنيت في فترة صدام، وعادت إلى المنطقة أكثر من 200 نوع من الطيور وعشرات الأنواع من الحيوانات البرية.

كما بدأ السياح ومعظمهم من العراقيين يتوافدون على المنطقة للقيام بجولات في القوارب وتناول السمك المشوي.

لكن الروائح الكريهة المتدفقة من مياه الصرف الصحي تدفع الناس إلى تجنب زيارة المنطقة حاليا، فيما تقول السلطات المحلية إنها لا تتحمل وحدها مسؤولية عدم معالجة مياه الصرف.

وتقول السلطات إن السكان يقومون بإجراء وصلات غير قانونية لأنظمة تصريف مياه الأمطار لأنها غير متصلة بنظام الصرف الصحي، بينما لا تقدم الحكومة الأموال اللازمة لمجلس المحافظة لبناء محطات لمعالجة مياه الصرف الصحي.

ويقول المهندس حيدر رزاق مدير مجاري ذي قار إن "سبب عدم وجود وحدات معالجة لمحطات الصرف الصحي يعود إلى كلفتها المالية العالية. فنحن نحتاج إلى نحو 100 مليار دينار عراقي (69 مليون دولار)".

ويضيف "يوجد لدينا الآن مشروعان لمحطات المعالجة، أحدهما كان يفترض أن يبدأ العمل منذ العام 2015 لكن لم يتحقق ذلك بسبب الأزمة المالية".

لكن الأسدي الذي عمل مؤخرا مع خبراء أوروبيين وأميركيين لإيجاد حل لهذه المشكلة، يقول إن الحل بسيط وطبيعي "ويكمن في استخدام النباتات لتنظيف مياه الأهوار عبر تقنية تسمّى التكنولوجيا النباتية. لكن السلطات للأسف لم تعر تلك المقترحات أي اهتمام".

> 70
> في المئة من نفايات العراق الصناعية تُلقى مباشرة في الأنهار أو في البحر

وأضاف أنه عندما أدرجت اليونسكو الأهوار في قائمة التراث العالمي في عام 2016 "تعهّد العراق بالحفاظ على النظام البيئي وتقديم خدمات وظيفية لمجتمعات الأهوار".

ولكن اليوم، وفي حين تصنف الأمم المتحدة العراق على أنه "خامس دولة في العالم معرضة لتهديدات" التغير المناخي، لم تعد إعادة تأهيل الأهوار مسألة مهمة للحفاظ على التراث بل هي مسألة بقاء.

وحذّر برنامج الأمم المتحدة للبيئة عام 2019 من أن "التغير المناخي من المتوقع أن يقلل هطول الأمطار السنوي في العراق، مما سيؤدي إلى زيادة العواصف الترابية وانخفاض الإنتاجية الزراعية وزيادة ندرة المياه".

ومع كل صيف حارق، تقترب البلاد من هذا الواقع المرير.

ويقول برنامج الأمم المتحدة للبيئة إنه في العام 2015 كان لدى كل عراقي 2100 متر مكعب من المياه المتاحة سنويا، مضيفا أنه بحلول عام 2025 ستنخفض تلك الكمية إلى 1750 مترا مكعبا، مما يهدد استقرار الزراعة والصناعة في البلاد على المدى البعيد، فضلا عن تهديد صحة سكانها البالغ عددهم 40 مليون نسمة.

يوم الطبيب في الهند لا ينتهي في ظل جائحة كورونا

نيودلهي - روهان أجراوال عمره 26 عاما ولن يستكمل تدريبه الطبي قبل العام المقبل، ومع ذلك فهو يؤدي في واحدة من أفضل مستشفيات الهند دور الطبيب الذي يتعين عليه أن يقرر من يعيش ومن يموت عندما يأتيه المرضى يشهقون طلبا للهواء ويتوسل أقاربهم له طلبا للرحمة.

وفي الوقت الذي يتأرجح فيه نظام الرعاية الصحية في الهند على شفا الانهيار خلال موجة ثانية شرسة من جائحة كورونا، يأخذ أجراوال هذه القرارات خلال يوم عمله الذي يستمر 27 ساعة بما يتضمنه من نوبة عمل ليلية ثقيلة الوطأة يتولى فيها المسؤولية في غرفة الطوارئ بمستشفى هولي فاميلي (العائلة المقدسة) في نيودلهي.

> الهند سجلت رقما قياسيا عالميا بتجاوز الإصابات اليومية 300 ألف حالة خلال الأسبوعين الأخيرين

وفي المستشفى يدرك الجميع من مرضى وأقارب وعاملين أنه لا يوجد ما يكفي من الأسرة أو الأكسجين أو أجهزة التنفس لإبقاء كل من يصل إلى البوابات الخارجية للمستشفى على قيد الحياة.

يقول أجراوال "الرب هو من يجب أن يقرر من ينبغي إنقاذه".

ويضيف "لم نُخلق لذلك.. نحن مجرد بشر، لكن في الوقت الحالي نُدفع دفعا للقيام بهذا الدور".

وسجلت الهند رقما قياسيا عالميا بتجاوز الإصابات اليومية 300 ألف حالة خلال الأسبوعين الأخيرين، ويؤكد الخبراء أن هذه الأرقام متحفظة.

وفي العاصمة الهندية أصبح عدد أسرة الرعاية المركزة الخالية في أي وقت أقل من 20 سريرا من بين أكثر من 5000 سرير ويتنقل المرضى من مستشفى إلى آخر وبعضهم يموت في الشارع وآخرون يموتون في بيوتهم، بينما تتنقل شاحنات الأكسجين تحت حراسة مسلحة في ضوء انخفاض المخزون بشدة كما تعمل المحارق على مدار الساعة.

وخلال نوبة العمل الطويلة، يقول أجراوال إنه يخشى مما سيحدث له إذا أصيب بالعدوى لإدراكه أن المستشفى لن يجد سريرا له.

ولم يتلق أجراوال التطعيم، فقد كان مريضا في يناير عندما أتيح اللقاح للعاملين في الحقل الطبي، ثم بدأ يسترخي في فبراير، ويقول "تصورنا جميعا خطأ أن الفايروس اختفى".

وعندما بدأ أجراوال نوبة العمل في التاسعة صباحا كانت أربع جثث تقبع في أحد الأماكن التي يُفترض أن يخلع فيها العاملون وسائل الوقاية.

كانت غرفة الطوارئ تكتظ بالمرضى والأقارب ولم يكن كثيرون يضعون سوى كمامة بسيطة من القماش. وكان الزحام شديدا لدرجة تلامس المرضى. وكان رجل يرقد في منطقة تخزين تحيط به سلال النفايات الطبية، بينما يجر أحد الأقارب أسطوانة أكسجين جديدة بدلا من أخرى نفد ما بها.

وفي العادة توكل المهام في غرفة الطوارئ بما فيها من كسور عظام وسعال لطبيب مبتدئ، في حين يعمل الاستشاريون والمتخصصون في وحدات الرعاية المركزية حيث الحالات أكثر خطورة. وقد انهار هذا النظام وأصبح الطبيب المناوب في غرفة الطوارئ هو أهم شخصية في المستشفى.

وقبل أن يبدأ أجراوال عمله في غرفة الطوارئ يمر على عنابر مرضى كوفيد. فهو مسؤول مع زميل أقدم منه عن 65 مريضا. وهذا يمنحه من ثلاث إلى أربع دقائق على أقصى تقدير لفحص كل حالة قبل أن تظهر حالات الطوارئ وهو ما يتكرر كثيرا.

وما إن يبدأ جولته حتى يتلقى مكالمة مفادها أن أحد مرضاه تدهورت حالته. يسرع أجراوال الخطى صوب الغرفة 323 حيث يرقد مسن شبه فاقد للوعي.

يشرح أجراوال لابن الرجل أنه سينقل إلى الرعاية المركزة حيث لا توجد أسرة خالية، لكنه يضيف "سيتعين عليهم تدبر الأمر".

ويقول أجراوال إنه تم تعيين حارس خارج باب غرفة الطوارئ لضمان عدم محاولة أي أقارب وضع أيديهم على سرير بالقوة.

وفي غرفة الطوارئ يتوسل أجراوال لأقارب مرضى في حاجة ماسة لأجهزة تنفس أن يبحثوا في مستشفيات أخرى عن أماكن لمرضاهم، لكنهم بحثوا بالفعل في أماكن أخرى.

وبعد ثلاث ساعات تقريبا تنتهي جولات أجراوال الصباحية ويبدو في غرفة الطوارئ، فيجلس خلف مكتب ويتجمع حوله أقارب المرضى يتوسلون له السماح بدخول مرضاهم.

وتبدو عملية أخذ القرارات وفقا لأقواله بسيطة، إذ يقول "إذا كان المريض محموما وأعرف أنه لا يحتاج الأكسجين فلا يمكنني إدخاله".

ويضيف "هذا هو المعيار. الناس يموتون في الشوارع من دون أكسجين".

ويسترسل في وصف عملية أخذ القرارات، فيقول "خيار آخر أن يكون لدي رجل مسن وشاب يافع. والاثنان بحاجة إلى أكسجين ولدي سرير واحد في الرعاية المركزة. ولا يمكنني أن أسمح بأن تحركني العواطف لأن ذاك أب لأحد. يجب إنقاذ الشاب".

ويبدأ أجراوال التجول في غرفة الطوارئ وهو يتحرك بخفة. لا يكاد ينظر إلى المرضى الجالسين في كامل وعيهم.

يسأله أحد الأقارب "هل سيشفى؟" بينما يفحص أجراوال صورة الأشعة الخاصة بالمريض ثم يرد "سأبذل قصارى جهدي لكني لا أستطيع أن أعد بشيء".

ويمر بامرأة تدعى كارونا فادهيرا في الرابعة والسبعين من العمر وفي حالة حرجة. يهز كتفها ويضع إبهامه بخفة على لمخر عينها لاختبار مقاومتها.

ويقول لابن أخيها بولكيت "ربما تموت في أي لحظة" ويتوسل إليه لنقلها إلى مستشفى به سرير خال بالرعاية المركزة.

ويمضي أجراوال الليل في صراع مع حالات طارئة متواصل في العنابر.

ويلفظ ثلاثة من مرضاه أنفاسهم الأخيرة أحدهم شابة في مقتبل العمر.

ولا يستطيع أجراوال أخذ قسط من النوم في غرفة الاستراحة قبل الساعة الخامسة صباحا.

الموت في كل الزوايا

الإرهاق على عينيه المحمرتين. وفي أي مكان يوجد فيه أجراوال بالمستشفى يسمع صوت أجهزة مراقبة دقات القلب وهو يحاول أن ينام، لكنه يسمع هذه الأصوات أيضا وهو في فراشه ببيته، الأمر الذي يجعل من المستحيل عليه أن ينسى الأرواح التي تُزهق في نوبة عمله بسبب نقص الموارد.

ويجد أجراوال بعض الراحة في متجر قريب يعمل على مدار الساعة بما فيه من أجهزة قوية لتكييف الهواء وحبوب الإفطار المستوردة وصوت المغنية سيلينا جوميز في الخلفية. وبعد الثالثة مساء بقليل يعود إلى نوبته